التدافع في القرآن

آيتان لا ثالث لهما في القرآن تذكران (التدافع) صدر الآيتين واحد من دون اختلاف: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥١)، ويأتي تتمة الآية: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ هكذا دون تفصيل. فلا نعرف الدافع ولا المدفوع، وفي آية (الحج: ٤٠)، يبقى صدر الآية كما هو، ولكن بقية الآية تذكر أمورًا جديدة: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾. والمذكورات أمور تخص العبادة ما بين أماكن للعبادة اليهودية والنصرانية والإسلام...

إذن هناك (تدافع) وهذا يتطلب وجود مدفوع ودافع له.

في آية البقرة يأتي (تتمة) الآية يتحدث عن الفساد، وهو أمر عام وله صور كثيرة. لكن آية الحج تتحدث عن احتمالات أذى يلحق بأماكن العبادة لليهود والنصارى والمسلمين.

وقد وجدت القرطبي يتحدث بإيجاز شديد عن آية (البقرة) فيقول: ...[1] اختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد منهم، فقيل: هم الأبدال.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٥٠، تحقيق محمد رضوان عرقسوسي، طبعة أولى.

وينقل الطبري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قوله: ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون، فقتلوا المؤمنين، وخربوا البلاد والمساجد، ونقل عن سفيان الثوري قوله: هم الشهود الذين تستخرج بهم الحقوق وينقل عن الثعلبي وسائر المفسرين: لولا دفاعُ الله بالمؤمنين الأبرار عن الفجار، والكفار لفسدت الأرض، أي هلكت.

ثم يختار الطبري القول المفضل لديه، فيقول: قيل هذا الدفع بما شرع على ألسنة الرسل من الشرائع، ولولا ذلك لتسالب الناس، وتناهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن، فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك، فتأمله. ا.هـ.

معلوم أن الطبري يستعرض الأقوال وبعد ذلك يعرض ما يستحسنه، وهنا رأيه واضح، فهو يعدّ الشرائع السماوية هي التي رسمت العلاقات بين الناس، ومنعت الاعتداءات، ولولا ذلك لهلك الناس، حيث يستطيع القوي أن يفعل ما يشاء في الضعيف، ولا يجادل أحد فيما قدمته الرسل من شرائع تستهدف التوحيد والعدالة، ورسمت الأطر للتعامل.

آية الحج

عند الحديث عن آية (الحج) راح القرطبي يستعرض جملة أقوال ألخصها فيما يلي[1]:

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/٤٠٨.

١- لـولا القتال والجهـاد لتغلب على الحـق في كل أمة، فمن استبشع من النصارى وغيرهـم (الجهاد) فهو مناقض لمذهبه، إذ لولا القتال لما بقي الدين الذي يذبّ عنه.

ثم يشـرح ما تقدم قائـلاً: لولا هـذا الدفع لهدم في زمـن (موسـى) الكنس وفي زمـن (عيسـى) الصوامع والبيع، وفي زمن (محمد) المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية.

٢- إن الدفع في الآية يقصد به دفع ظلم قوم بشهادة العدول، فالظلم الذي يريده قوم يتـمّ دفعه ومنعه بوجود مشهود عـدول، وقريب من هذا قـول (فرقة): لولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة لكان كذا وكذا.

٣- ينقـل الطبري عن أبي الدرداء: لولا أن الله ﷻ يدفع بمن في المساجـد عمـن ليس في المساجد، وبمـن يغزو عمن لا يغزو لأتاهم العذاب.

٤- يفهـم ابن خويزمنداد أن الآية تضمنت (المنع) من هدم كنائـس أهل الذمة وبيعهم وبيـوت نيرانهم... لكن يجوز نقض المسجد ليعاد بنايته.

والخلاصـة: أن آية الحج تحدثت عن نوع خاص من الدفع أو التدافـع، فأصحاب الدين اللاحق سيهـدون أماكن العبادات

السابقة؛ لذا جعل الله نوعًا من التدافع، فبقيت هذه المعابد قرونًا طويلة.

أما آية البقرة فكأنها تتحدث عن الدفع الحضاري، فأصحاب كل حضارة يحرصون على بقائها واستمرارها، ولولا ذلك لبادت وذهبت، كذلك فالتنافس في الحضارة يفيد البشرية، ولولا ذلك لجمدت الحياة وتوقف نمو الحضارات، فكل حضارة تأخذ عن سابقتها، وتجدد وتزيد، وفي هذا مدد لنمو الحضارة وتقدمها، فاللاحقة تأخذ عن سابقتها وتزيد، وفي ذلك التقدم المفيد للبشرية.

ما جاء في الظلال: آية البقرة

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

جاء في الظلال[1]: هنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من (اصطراع القوى وتنافس الطاقات) وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الأطوار.. وهنا تنكشف عن مدّ البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في

(١) الظلال ١/٣٩٦، الطبعة السادسة.

(تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات) ومن وراء ذلك جميعًا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعًا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء، في نهاية المطاف.

إن الحياة تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، ويكون ذلك بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، التي تعرف الحق الذي بيَّنه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وأن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء مرضاته.

هنا يمضي أمر الله، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش (الصراع) أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

من هنا تكـون الفئة القليلة المؤمنــة الواثقة بربها تغلب في النهايــة وتنتصر، ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عــن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة، إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار.. ا.هـ.

إن من يجيد قوانين الصراع ويحسنها ينجح، ومن يجهلها ينهــزم ويفشل؛ لذا ليس على (صاحب الحــق) أن ينام مطمئنًا لذلــك، فمعرفة قوانين الصــراع وإدارته مهمــة للغاية؛ لذا كان عمر الفاروق يشكو بمرارة من عجز المؤمن وجلد الفاجر.

ما جاء في الظلال: آية الحج

يقــول تعــالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠).

جاء في الظلال[1]: إن قوى الشر والضلال تعمل في الأرض، والمعركــة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان، منذ أن خلق الله الإنسان.

إن الشــر جامح والباطل مسلح، وهــو يبطش غير متحرج، ويضــرب غــير متورع، وهو يملــك أن يفتن الناس عــن الخير أن

(١) الظلال ٥/٦٠١.

يهتدوا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له، فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة، وتحرسهما من الأشواك والسموم. لم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلًا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل، اعتمادًا على قوة الإيمان في النفوس، وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب، فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب، وتفتن النفوس وتزيغ الفطر، وللصبر حد وللاحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم، ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلا ريثما يستعدون للمقاومة والدفاع، ويتمكنون من وسائل الجهاد، وعندئذٍ يأذن لهم في القتال وردّ العدوان، والله قبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه سيتولى الدفاع عنهم، فهم في حمايته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، إنه يكره أعداءهم؛ لكفرهم وخيانتهم، فهم مخذولون حتمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾.

وإن حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم، من الناحية الأدبية، فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطرين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ ولهم أن يطمئنوا لحماية الله لهم ونصره إياهم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾.

إن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة، فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة، لا يعود خيرها عليهم وحدهم، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها، وفيها ضمان لحرية العقيدة والعبادة، وذلك فوق أنهم مظلومون، أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وهي أصدق كلمة تقال، وأحق كلمة أن تقال...

ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم، فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين، وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم، إنما هي العقيدة وحدها ومن أجلها يخرجون، لا الصراع على عرض في الأرض، التي تشتجر فيها الأطماع، وتتعارض فيها المصالح، وتختلف فيها الاتجاهات، وتتضارب فيها المنافع..

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة: "حاجة العقيدة إلى الدفع عنها": ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾.

الصوامع أماكن عبادة منعزلة للرهبان، والبيع للنصارى عامة، أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن عبادة لليهود، والمساجد للمسلمين. وهذه كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها للعبادة - لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحجبها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعضه، أي

دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها، فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان، إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول، فلا يكفي الحق (أنه الحق) ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من قوة تحميه وتدفع عنه، وهي قاعدة كلية لا تتبدل مادام الإنسان هو الإنسان.

لا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة.

الله تعالى يأذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون، ويعتدي عليهم المبطلون، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا، وهو يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾.

إن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من (التنابلة الكسالى) الذين يجلسون في استرخاء، ثم يتنزل عليهم (نصره) سهلاً هيناً حيناً بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن، ويتوجهون إلى الله بالدعاء كلما مسهم الأذى، ووقع عليهم الاعتداء.

نعم، يجب أن يقيموا الصلاة، يجب أن يرتلوا القرآن، أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء، لكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها، إنما هي الزاد الذي

يتزودونـه للمعركة، والذخيرة التي يدخرونها للمعركة، والسلاح الـذي يطمئنـون إليـه، وهم يواجهـون الباطل (بمثـل سلاحه) ويزيدون عنه (سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله).

لقـد شـاء الله تعـالى أن يجعـل دفاعه عـن الذيـن آمنوا يتم عـن طريقهم أنفسهم؛ كـي يتم نضجهـم في أثناء المعركة، فالبنيـة الإنسانية لا تستيقظ كل طاقاتها المذخورة كما تستيقظ وهي تواجه الخطر، وهي تدفـع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجـه (القوة المهاجمـة) عندئذ تتحفز كل خليـة بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها، ولتتساند مع غيرها في العمليات المشتركـة، ولتعطـي أقصـى ما تملكـه، ولتبذل آخر مـا تنطوي عليـه، ولتصـل إلى أكمل ما هو مقدور لها ومـا هي مهيأة له من الكمال.... أما النصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتنزل (هينًـا لينًا) على القاعديـن يعطل تلك الطاقـات عن الظهور؛ لأنـه لا يحفزها ولا يدعوها، كمـا أن النصر السريع الهين اللين يسهل فقدانه وضياعه؛ لأنه رخيص أولًا، ولم تبذل فيه تضحيات عزيزة، وثانيًا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه؛ لذا لا تتحفز للدفاع عنه[1].

---

(١) هناك قاعدة في الحروب تقول: ليس العبرة بالنصر أو كسب أرض، لكن المهم القدرة على الاحتفاظ بالنصر وما جلب.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، جعل الله دفاعـه عن الذين آمنوا يتـم عن طريقهم أنفسهـم، ولم يجعله يهبـط عليهم من السماء مـن دون عناء، والنصر قد يبطئ على الذيـن ظلمـوا وأخرجوا من ديارهم بغير حـق إلا أن يقولوا ربنا الله، فيكون الإبطاء لحكمة يريدها الله.

قـد يبطئ النصـر؛ لأن بنية الأمــة المؤمنــة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ..... وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا إلا بذلته هينًا رخيصًا في سبيل الله.. وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها - من دون سند مـن الله لا تكفـل النصـر - إنما يتنـزل النصر مـن عند الله، عندما تبذل الأمة آخر ما في طوقها، ثم تكل الأمر بعدها لله...

قد يبطـئ النصر لتزيـد الأمة المؤمنة صلتهـا بالله، وهي تعـاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنـدًا إلا الله، ولا متوجهًا إلا إليـه وحده، هـذه الصلة هـي الضمانـة الأولى لاستقامتها على النهـج بعد النصر عندما يتأذن بـه الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

قد يبطئ النصـر؛ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد كفاحها وبذلهـا وتضحياتهـا لله ولدعوتـه، فهي تقاتل لمغنـم تحققه، أو

حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله....

قد يبطئ النصر؛ لأن الباطل الذي يحارب لم ينكشف زيفه للناس، فلو غلبه المؤمنون فقد يجد له أنصارًا - من المخدوعين فيه - لم يقتنعوا بفساده وضرورة زواله، فتبقى له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة....

وعد الله المؤكد الوثيق التحقق، الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره، فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله؟ فيستحقون نصر الله، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه، إنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فحقق الله لهم النصر، وثبت لهم الأمر، لقد عبدوا الله ووثقوا صلتهم به، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مسلمين....

هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معتزين بالله وحده دون سواه، هؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

إنه النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعبائه، والأمر بعد ذلك لله، يصرفه كيف يشاء، فيبدل ويحول الهزيمة إلى نصر، والنصر إلى هزيمة، عندما تختل القواعد أو تهمل التكاليف: ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾.

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة، من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح، المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات والمطامع والشهوات.

إنه النصر له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه، فلا يعطى لأحد جزافًا أو محاباة، ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه.. ا.هـ.

باختصار للنصر قواعده ومتطلباته وشروطه وأهله، فلا يكفي أن يقعد صاحب الحق ويقول: إن الحق معه والله ناصره، وإن خصمه على باطل، بل لا بد من تحرك صاحب الحق التحرك المناسب الجاد العارف، ولا بد من وجود قوى تحمي الحق وتدافع عنه، وأي حق مهما كان ليس تحميه قوة فسيكون الأمر مدعاة لأهل الباطل لينقضوا عليه؛ لذا رأينا أنبياء الله ينهزمون وجيوشهم في بعض المعارك لخلل في الخطط أو في التنفيذ، فتلحق بالنبي وجيشه الهزيمة.. إن الحق ينتصر بأهله، وكذلك الباطل يمكن أن ينتصر بأهله، وهكذا نفهم معارك الأنبياء عليهم السلام.

الله تعالى بعدله المطلق لا يحابي أحدًا، بدليل أنه قسم الأرزاق فلم يحرم الكافر رزقه، ولم ينحز لجهة فينصرها، وهي

لا تستحق النصر، ومن يعتقد أنه من شعب اختاره الله لنفسه فهو واهم مغرق في العنصرية، مكذب لعدل الله الذي قامت السماوات والأرض به، وهو يخدع نفسه وأهله، وذلك أقبح (الخداع).

ورد في السنة النبوية: **الخلق عيال الله، أحبهم إليه أنفعهم لعياله.**

وفي السنة النبوية: **من آذى ذميًا فقد آذاني.**

ومن أدبيات الفضيل بن عياض: والله لا يحل لك أن تؤذي كلبًا ولا خنزيرًا (بغير حق) فكيف تؤذي مسلمًا؟

الصراع والتصارع

الصَرْع لغةً: الطرح على الأرض، والمَصْرع كمَقْعد، وهو موضع الصرع، يقال: صَرَعَه مثل مَنَعه[1]...

وفي لسان العرب[2]: المصارعة والصراع: معالجتهما، أيهما يصرخ صاحبه، والمصارعة المجابهة، حيث تعالج الأطراف بعضها ضد بعض باستخدام قواهم المادية والمعنوية[3].

---

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، طبعة ثانية، ٣/ ٥١.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ١٩٧.
(٣) القواعد الشرعية لإدارة الصراع الحضاري، د. سامي الدلال، طبعة أولى ص (٧).

يقول د. الدلال: الصراع مكلف؛ لأنه يتضمن الحشد قبله، والتضحيات ضمنه، والتبعات بعده، وهو يتسع بحسب دائرته، فصراع العائلات أوسع من صراع الأفراد، وصراع القبائل أوسع منهما، وصراع الشعوب أوسع من ذلك، أما صراع الحضارات فهو الأشمل مساحة، والأغور عمقًا، والأبعد تأثيرًا... وتحتدم شدة الصراع بحسب عزم المتصارعين وإصرارهم كل منهم على هزيمة غريمه، بحسب ما يتوافر لكل طرف من وسائل، سواء أكانت منطلقات عقدية أو اندفاعات نفسية أو اقتصادية أو روابط اجتماعية أو غير ذلك مما يندرج فيما يحتاج إليه الصراع بين الأمم من ضمن حضارة واحدة أو حضارات شتى..

ويتسم صراع الحضارات (بطول النفس) واستمرارية الاحتكاك وشدته وفورته وجيشانه، فقد يخبو لكنه لا ينطفئ ولا يتوقف حتى يبلغ نهايته، عندها يدخل في طيات التاريخ، وربما استل من سجل الزمان، فعاد جذعًا، ليكون وقودًا لصراعات حضارية أخرى[1].

الصراع وإدارته

لأن الصراع عمل مشترك بين أكثر من طرف فهو (تدافع) بين أطراف، وله قواعده، كما له وسائله وابتكاراته، فمن يجيد

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع ص (٧).

(اللعبـة) ويعـرف قوانينها ليس كمن يجهل ذلـك، ومن يحسن الحشـد والتجييش ليس كمن لا يحسن، ومن يجيد (التحالف)، ومـن يحسن مخاطبـة الغير، ليس كمن لا يحسـن ذلك... يقول العرب: (لا تطلبوا الحاجات من غير أهلها، ولا تطلبوها في غير وقتها) فمن يطلبها من غير أهلها، ففاقد الشيء لا يعطيه، ومن يطلبها في غـير وقتها فلن يحصل عليها؛ لأنها قد تكون موجودة ثم فقدت..

ولعـل الأهم هـو المعرفة الجيدة بقواعـد اللعبة والأطراف المعنية بالصـراع، ومن يمكن أن يشـارك في الصراع مستقبلاً، ومن يمكن أن يخرج منه أو يتحول إلى محايد...

الصـراع قـد يطـول أو يقصـر تبعًـا للأطـراف المشاركة والمنخرطـة فيـه، فكلما كثرت الأطـراف طال الصـراع وتعقد، كذلـك يلاحظ أن الصراعات التـي أساسها (العقيدة) يصعب حسمها، لكـن الصراعات السياسية ومثلهـا الاقتصادية يسهل الوصول فيها إلى حل...

ويلخص د. الدلال كل ما مرّ بأسطر قليلة، فيرى[1]:

١- ينجـح الصراع أو يفشل بحسب خـبرة من يديرونه وبحسب إرادتهم وتمكنهم من حشد الطاقات.

٢- إن ابتكار الوسائل يعين على النجاح والحسم.

---

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع ص (٨).

٣- عندما تتكافأ أطراف الصراع فإنه يطول، وتتوسع رقعته.
٤- الأصعب في الصراعات ما كان عقديًّا أو حضاريًّا، أو يجمع الصنفين معًا.
٥- لأن الحضارة تتكون من أكثر من مكون بعضها مادي وبعضها فكري ثقافي؛ لذا فالصراع الحضاري يكون واسعًا فتقتضي إدارته وجود (مشارك) لكل مكون، فالثقافي يصارع مثيله، والأدبي كذلك، والعلم والمادي؛ لذا يجب حشد الكل لسد الثغرات.
٦- يحقق الصراع التقدم أو النجاح بقدر (تناغم الإدارات الفرعية) فيما بينها في (تكامل) وتساند.
٧- يمكن القول: إن الصراع الحضاري يتطلب حشدًا هائلًا لكل مكونات المجتمع من الفرد إلى الدولة، **فكلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته.**

أخيرًا.. فإن طبيعة الصراع يمكن أن تتغير من صراع في العقيدة إلى صراع سياسي أو اقتصادي، والمثل الواضح في هذا الصراع بين اليهود والنصارى، فقد ظل مشتعلًا قرونًا عدة، ثم جرى تحويل مجراه شيئًا فشيئًا حتى انقلب إلى تحالف عند الكثير.

الصراعات السياسية التي أشعلتها الحرب العالمية الثانية بين دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) ودول الغرب، وبعد هزيمة دول المحور واستسلامها دون شروط، تحول الصراع إلى

نوع من التحالف بحيث أمكن بفضله تعمير ما هدمته الحرب، وما أشعلته في النفوس من أحزان وأحقاد.

صراع الحضارات أم حوار الحضارات؟

من المعروف أن صاموئيل هنانتجتون طرح فكرة صراع الحضارات في كتابه (صدام الحضارات)[1]. فالحضارة عنده (كيان ثقافي)، والانقسامات الكبرى بين البشر ستكون (ثقافية) والمسيطر على النزاع سيكون (ثقافيًّا)، وهو يعدّ الحضارات أعلى تجمع (ثقافي) للبشر، وأوسع (مستوى للهوية) الثقافية للشعب، ولا يسبق هذا (المكون) إلا ما يميز البشر عن غيرهم، ويتحدث عن المكون الثقافي، فيعد من ذلك اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات، ولكل حضارة فروع، ويعد الأوروبية والأمريكية من فروع الحضارة الغربية، والعربية والتركية والماليزية من أقسام الحضارة الإسلامية وفروعها.

وقد جوبه طرح صدام الحضارات بهجوم واسع جعل صاحبه يتراجع كثيرًا، ويعلن ذلك بشكل واضح.

وقد تبنى الرئيس الإيراني - السابق - د. خاتمي فكرة (حوار الحضارات)، وله فيه مؤلف جيد يشرح بالتفصيل نظريته ومبرراته، وقد حاوره فيه (جوزيف حرب).

(١) صدام الحضارات ص (١٧) إصدار مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.

حوار الحضارات

كتاب جيد، وهو حوار مع د. محمد خاتمي[1] ومحاوره قدم له جوزيف حرب، يتكلم د. خاتمي عما يصيب الحضارة من أمراض - قلما تخلو منها حضارة - تكبر هنا، وتصغر هناك... لكن الخلو منها كليًّا غير وارد.

يقول د. خاتمي[1]: لا أظن أن حضارة من الحضارات لم تصب في أزمنة كثيرة (بطغمة باغية) تولت السلطة، وتولى تجارها السوق، كما تولى عسكرها (الإبادة)، وقد أفادت من قوتها المدمرة لتحتل وتغزو، تقمع وتتوسع وتنهب، مدعية أنها فعلت كل ذلك خدمة لتقدم البشرية وإنقاذها من اللصوص وشذاذ الآفاق والقتلة، ولعل ما يزيد الأمر إيلامًا أن هذه (الطغمة) كانت تجد عبر التاريخ أتباعًا مهللين مناصرين و(مفكرين) هم ليسوا بأقل من (منافقين) يسوقون لمصلحة ما ارتكب (حججًا) إنسانية، إذ يضفون على جميع (المجازر) طابع الحضارة والتمدن، إنه غالبًا ما ترتكب (جرائم ومذابح) وتكثر المجاعات، وتتنوع الإبادات، ويتم التوسع والغزو والاحتلال، كل ذلك باسم الحضارة...

كل طغمة تمارس جرائمها حقبة، لكنها في النهاية ستلاقي مصير كل المجرمين والقتلة والطغاة، لكن تبقى الحضارة، وهي

---

(١) حوار الحضارات، ص(٤)، طبعة دار الروضة، طبعة أولى.

تنهض لتخرج من خرابها، وتتعافى من جديد، ولتظهر أن أحلام الشعوب في الأمن والسلام والكرامة، قد تفلح قوى الظلام في إخفائها، لكنها لا تستطيع محوها... ا.هـ.

إن الحضارات تصارعت حتى كلّت، فهل جاء دور الحوار؟

القرن العشرون: حروب كونية وصراعات حادة

أكثر من مفكر يصف القرن العشرين بكونه قرن الحروب والدمار، فقد جرت فيه الدماء البشرية متدفقة مستباحة، شهد القرن - ربما لأول مرة - حربين كونيتين، قدر المستشار الأمريكي - الأمن القومي - بريجنسكي أن الحصيلة للقتلى جاوزت (١٧٦) مليونًا من البشر، هذا إضافة إلى الذين ماتوا جوعًا أو هربًا من الحرب.

د. محمد خاتمي يسجل ما جرى في هذا القرن الدموي فيقول[١]: كان القرن العشرين حقبة لا نظير لها في التاريخ، فقد شهد أشرس ألوان الحروب وأكثرها إراقة للدماء والظلم والاستغلال، وهو قرن يمثل حصيلة مشتركة غريبة تجمع بين ما عرضه مفكرون من فكر فلسفي إلى ما اتخذه ساسة كبار من قرارات، ولا يمكننا التغلب على (أزمات) هذا القرن ودمويته

(١) حوار الحضارات ص (٣٥).

(المثيرة للهلع) سوى أن نعيد النظر في كل المبادئ، التي قام عليها كل من الفكر والسياسة، إضافة إلى (الشكل الراهن) للعلاقات الدولية، واستبدال كل ذلك بمشروع جديد مثل (حوار الحضارات والثقافات)... ا.هـ.

إن الصراع بين البشر يأخذ شكله الأخطر والأعنف في الحروب وفي الأمر الجديد القديم المتمثل في ضرب (الحصار) وهو نوع من القتل (البطيء) دون سماع صراخ الضحية.

حصار مخيف:

سجل الإنسان الغربي نوعًا من الحصار ربما لم تعرفه البشرية من قبل، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية - بكل دمويتها - طلب الإنجليز من الصوماليين تسليم ما معهم من السلاح فرفضوا، فقاموا بجمع (الإبل) في حظيرة كبيرة ومنعوا عنها الطعام والماء حتى ماتت وهلكت، فهل عرفت البشرية مثل هذا العمل الحضاري العظيم؟

عمل حضاري أكثر تقدمًا

الحيوان المفترس إذا جاع اصطاد حيوانًا وأكله، لكنه لا يعرف العمل الحضاري العظيم (التعذيب) فمن المبتكرات

الحضارية الجديدة أن الإنسان يريد قتل أخيه والتخلص منه؛ لأنه معارض أو عدو، لكنه لا يبادر لقتله، بل يعذب أخاه حتى يجعله يتمنى الموت فلا يجده ولا يحصل عليه، هذا الفن (الحضاري الجديد) يسجل كل يوم ابتكارًا واكتشافًا جديدًا، ومن لا يصدق فليذهب إلى دوائر الأمن والاستخبارات وأولها (غوانتنامو) ليرى الإبداعات الحضارية الكبرى..

في إسرائيل يتم التعذيب بموافقة الدولة وعلمها، وعلم كل أصدقاء إسرائيل الأموات والأحياء، والكل صامت ساكت.

من نكد الدنيا أن العامل الفلسطيني عليه أن يتوجه لإسرائيل ليعمل في المستوطنات أو غيرها؛ لأن في فلسطين نسبة عالية للبطالة، عشرون شابًّا يتوجهون من نواحي القدس وعند المعبر يأمرهم حرس الحدود أن يجمعوا (هوياتهم) ثم يعملون (قرعة) ليأخذوا شابين ويردوا البقية من حيث جاؤوا، ثم يشير الحرس (لقناني فيها بول) ويطلبون من الشابين أن يشربوها، فإذا امتنعوا ضربوهم وأمسكوا بهم وصبوا البول في (أفواههم) فإذا أغمي عليهم نقلوا للمستشفى وهم في أسوأ حال، مراسل صحيفة يسأل الشباب: لماذا لا يشتكون؟ فيرد الشباب: إن الشرطة منحازة ضد الفلسطيني ولا فائدة من الشكوى، بل سيقول حرس الحدود: إن الشباب اعتدوا عليهم، فتكون مشكلة أكبر.

الموضوع نشرته صحيفة (معاريف) ونقلته صحيفة الحياة، والحاجز كان عند (أبي رديس).

والسؤال: هل سمع العالم بهذا الحدث الحضاري العظيم الذي ينشر المحبة في العالم؟ ومع ذلك يفاخر الصهاينة بأخلاقهم، ويبارك المنافقون ليل نهار ذلك.

عمل أعظم وأعظم

رجيف سيمونز صاحب كتاب (عراق المستقبل)[1] يتحدث عن نقل ما يقارب (٦٠٠٠) معتقل أفغاني من الشمال الأفغاني إلى الجنوب، وذلك عام ٢٠٠٢م، بحيث وضع الألوف في حاويات لنقل البضائع وأغلقت من دون طعام ولا ماء ولا منافذ، وعندما ضربهم العطش والاختناق راحوا يضربون بأيديهم، وهنا قام جنود الجنرال الشيوعي (رشيد دستم) بفتح الحاويات، وفتحوا نار أسلحتهم فمات من مات عطشًا أو بالرصاص، فلما وصلت القافلة (شبرغان) كانت الأكثرية قد فارقت الحياة، وعندما توقفت الحافلات راح الجنود الأمريكان يتفرجون على الجثث تنزل من الحاويات، وهنا تذكروا أمرًا خافوه، وحسبوا له حسابًا، فلعل بعض الأقمار الصناعية تصور هذا العمل الحضاري العظيم؛ لذا نصحوا جنود دستم بضرورة الإسراع في إفراغ البضاعة التالفة..

(١) عراق المستقبل ص (٢٧)، دار الساقي، طبعة ٢٠٠٤م.

جندي من جنود التحالف الدولي في أفغانستان نقل ما شاهد لصحيفة الغارديان في ٢٠٠٣/٥/٢٥م، ومما قاله: شاهدت نحو (٤٠) جنديًّا من القوات الخاصة وقد ألقوا الأحياء والأموات في (حفر) ثم قاموا بإطلاق النار عليهم... ا.هـ.

وعن الغارديان نقلت الواقعة صحف ألمانية وأمريكية؛ ولأن الضحية من المسلمين الشرقيين ومن الأفغان؛ لذا مر مرور الكرام ولم يذكره أحد من عالم النفاق!

الحروب أسوأ وسيلة للتدمير

اخترع الإنسان كثيرًا من الوسائل، لكن الأشنع والأفتك كانت الحروب، وبفضل وفرة الأسلحة وتنوعها، صارت الحروب أشد فتكًا والأشد تنكيلًا..

وقد أحسن من وصفها بكونها (مطرة دموية).

يقول خاتمي ويكرر ويشاركه كثيرون[1]: تمثل الحربان العالميتان أبرز الحوادث (الدامية) خلال القرن العشرين، ولقد كان الغرب هو منشئ هذه الحروب والمبارك لها، والعامل على استمرارها، كما شهد القرن العشرون ألوانًا من الاعتداء والتجاوز على حقوق الإنسان، في أنحاء العالم شتى، ومنها ما

(١) حوار الحضارات ص (٦٨).

يتصل بالشعب الفلسطيني المظلوم، إضافة إلى شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكيا الجنوبية، فقد عانت هذه الشعوب من الظلم والتمييز والتجاوز درجات كبيرة.

وقد تم فرض كل ذلك من (خارج العالم الإسلامي)، وعلى بلدان وشعوب كلها خارج نطاق (البلدان الصناعية)... ا.هـ.

أما الحروب الإقليمية والانقلابات العسكرية فهي الشغل الشاغل للغرب، وكل مشاكس سيصنف بكونه من المارقين ومن الإرهابيين، والويل لمن يكفره النمرود!

عندما يختل التوازن

الإنسان، ومثله الحيوان يسير متوازنًا، فإذا اختل (توازنه) سقط أرضًا، وفي الكون توازن، فإذا اختل بفعل أو إهمال تأتي الكوارث، وحين تصاب (حضارة) بخلل في توازنها يكون الأذى كبيرًا فادحًا والعقاب أليمًا شديدًا.

د. خاتمي ينبه إلى خطر اختلاف التوازن الحضاري، فيقول[1]: لقد اختل التوازن العالمي اليوم من جراء ما نشهده من (خطاب التفوق والاستعلاء) ومحاولة (دمج) ثقافات شتى في نظام (هيمنة عالمي) مع الهوس الذي يتملك القوى العظمى،

(١) حوار الحضارات ص (٨٤).

فيما يتصل بـ(تصدير أزماتها) للخارج، يضاف إلى ذلك (الجشع الاقتصادي وتزايد التسلح العسكري) دون هوادة، وبما يشمل الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، إلى جانب ما تتعرض له المبادئ الأخلاقية والمعطيات الروحية من إهمال، وهذا ما يلزمنا ملاحظته مستقبلاً من خلال رؤية (نقدية) حيال ماضي العلاقات الدولية ومستقبلها، كي تساهم في صنعه بلدان العالم كافة... ا.هـ.

إن الدار متى أصابها التشقق، ثم أهملت فقد تسقط على ساكنيها، فتكون العواقب وخيمة وكارثية؛ لذا فعلى شعوب العالم أن تعيد النظر في (النظم الجائرة) لترفع الظلم عن المظلومين قبل أن ينزل العقاب وصدق الله العظيم: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾.

فالعقاب يقع على الظلمة وعلى الشياطين الساكتين عن الحق، وحين يقع العقاب يكون (كالصواريخ) يجهل مطلقها من يكون الضحية، وكم يكون الخراب.

مطلوب احترام الإنسان

الإنسان مخلوق كرّمه خالقه؛ لذا ليس من حق أحد أن يهينه إلا إذا اقترف جناية، وهو بريء حتى تثبت إدانته، والجناية فردية، فمن اقترف ما يستوجب العقوبة يعاقب وحده،

دون أهلـه وذويه، وتقدم الإنسـان أو تخلفه، فقره أو غناه، علمه أو جهلـه، لا يؤثر على سلامة التعامل معـه، وتقسيم البشر هذا مواطن درجة أولى وذاك من الدرجة العاشرة مرفوض كليًّا.

د. خاتمـي يتحـدث عن كل مـا تقدم بصراحـة وشجاعة، فيقـول[1]: ... مـن الضروري تنـاول الأسئلة الجريئـة بدلًا من التعويـل على إجابات تقليديـة متواضعة، وكي نحاول العثور على تعريفـات ومفاهيم جديدة وتدشين بنية حديثة في كل من العقل والثقافة والسياسة، هذه البنية الجديدة ضرورية (للوعي) بعالم اليوم، ومن أجل المضي قدمًا نحو سلام مستقر، فإذا كنا نطمح في الألفيـة الثالثة إلى سيادة السلام والعدل والاستقرار، فلا بد من توفير (الاحترام للإنسـان) أينما وجد، وعلينا أن نكف عن تقسيمه إلى مخلوق من الدرجة الأولى وآخر من الدرجة الثانية، إنسـان غربي وآخر غير غربي، أما الفقر وظاهرة التمييز سواء ضمـن النطاق المحلي أو الـدولي، في مستـوى الرفاهية والعلم، في مستـوى التقدم والتقنية، فكلهـا نتيجة ما أصاب الإنسان من ظلـم؛ لـذا نحن في حاجة - كـي ندخل الألفيـة الثالثة - وبشكل مشـرّف، إلى إرادة عالمية من أجل تدويل الديمقراطية واجتثاث عوامل التمييز والظلم في بلدان العالم شتى... ا.هـ.

---

(١) حوار الحضارات ص (٨٥).

فهل تستطيع البشرية أن تتجاوز الكره والعنصرية والأنانية، وترتفع نحو الأعلى والأفضل أم تعصف العنصرية والمصالح الخاصة، فتعود إلى شريعة الغاب: أنا قوي فلي كل شيء وأنت ضعيف فلا حق لك!

التصارع إلى أي مدى

هناك مهدئات ومنشطات للصراع، فالكره والعنصرية والأنانية إذا اجتمعت في شعب أو حضارة، فإن الإعلام والسياسة والتاريخ قد تشعل الصراع وتدفع به إلى نهايته، وقد تعمل على التهدئة المؤقتة أو البعيدة، والمثل القريب ما حدث قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، فقبلها قامت ألمانيا النازية العنصرية وجذبت الفاشية الإيطالية والماركسية المادية، فعقدت تحالفًا ضم اليابان الطامعة، ووقف الغرب في الطرف الثاني وجرت محاولات جادة كي لا تصل الأمور إلى حرب كونية طاحنة، لكن الجهود فشلت، واشتعلت الحرب وكانت طاحنة لم يشهد العالم لها مثيلًا بسبب نوع الأسلحة وقوتها، وانتصرت دول المحور وانهزم الغرب، ولكن دخول أمريكا الحرب جعل النهاية تنعكس، فتلحق بدول المحور هزيمة ماحقة، وضربت اليابان بالقنابل النووية، وهدمت ألمانيا ونهبت، وكذلك إيطاليا، ثم طرح مشروع (مارشال) للنهوض بدول المحور، وسجل التاريخ واقعًا جديدًا،

فالمهزوم يتقدم ويعمر ويأخذ طريقه في النهوض وخلال سنوات قليلة تعود اليابان - منزوعة السلاح، الكافرة بالحرب - لتتقدم وكذلك ألمانيا، ولكن حربًا جديدة تشتعل أطلق عليها (الحرب الباردة) صراع جديد له أسلحة جديدة يستهدف إضعاف الخصم وإشغاله والدفع به للسقوط دون حرب، وهكذا سقط الاتحاد السوفيتي دون أن تطلق عليه طلقة ولا قذيفة، وربما كان السقوط الأول من نوعه، لكن هذا السقوط الغريب أفرز حالة جديدة، إذ صار العالم أحادي القطب والقيادة بعد أن كان يعيش ثنائية ضبطت الصراع سنوات.

إن (القوة الجديدة) راحت تنشر جيشها في العالم، وتتدخل في الأمور الصغيرة والكبيرة، وتصنف العالم: هذه دول إرهابية مارقة، وهذه دول معتدلة، هذه دول تعاقب، وتلك تحاصر، واستعملت الهيئات الدولية أداة للصراع والعقوبات، وقد وجدت أصلًا لنشر الأمن ودفع العدوان.

يبدو أن تعدد الأقطاب الأقوياء يجعلهم يتصارعون، وقد يصل الصراع سقفه، فتعلن (حرب كونية) أولى وثانية في قرن واحد، وقد يشهد العالم قيادة (واحدة) فتستبد وتحاول أن تعاقب هذا، وتؤدب هذا، وترفع العصا في وجه كل من عصى.

فما الحل؟ قيادات متعددة تتصارع وتتقاتل، أم قيادة واحدة تخيف الكل وتفعل ما تشاء؟

هـل الحل في نشـر ثقافة التسامـح وحل الأمـور بعقلانية وعـن طريق هيئات دولية؟ أم مكتوب على الفرد أن يصارع أخاه والشعب يصـارع جاره، والحضارة تصـارع أختها؟ ولا مفر من ذلك.. إنه قدر العالم الذي لا مفر منه ولا مهرب!

لقـد حاولـت الأديـان السماوية حـل المعضلـة، فلما ذهب أبناؤها حوّلها الأنصار إلى أدوات كره وعنصرية ومسعر حروب، حتى داخل الدين الواحد كما فعلت أوروبا في حروبها الدينية.

يوجد اليوم في العالم قوميات متعددة تتجاوز الألوف، منها خمسة آلاف قومية تعدّ نفسها مضطهدة منتقصة الحقوق، فمن يحسن إطفاء هذه (الشرارة)؟

كان العـالم يشهـد إمبراطوريـات جمعت شعوبًـا مختلفة وربما صهرتها، لكن هـذه الإمبراطوريات توجهت للخارج لتغزو وتسيطـر وتنهب وتقتل، ولعل فيما فعلتـه دول الاستعمار الغربي أقرب شاهد وأشنع دليل..

فإلى أين المسير؟ هل المطلوب تفتيت الفتن وتقسيم المقسم، وجعل كل بضعة كيلومترات (دولـة مستقلة ونشيد وطني وزعيم ملهـم) وأم معارك جديدة وأحلام من نـوع أحلام القطط التي تدور كلها حول الفئران؟

إن العالم اليوم يشكو شح العدل وقلته، مع تعاظم القوة، والقوة تغري بالعدوان، وتستهين بقواعد العدل، فمن يحل لنا هذه المعادلة؟

حين توجد قوة ضعيفة وإلى جوارها قوة كبيرة، الأولى لديها كثير من الخيرات، والثانية لديها كثير من الجياع، فلا تجد الحل إلا ما اخترعه (الذئب) لأكل الحمل، إذ لم يجد حجة مقنعة فاتهمه بأنه كان يشرب قبل عام الماء من النهر، فجاء (الحمل) الصغير فأزعجه حيث أثار الطين ونكد على الذئب شربه، فرد الحمل المسكين: إنه قبل عام كان في بطن أمه فكيف يمكنه أن يزعج السيد الكبير؟

سؤال كامل السذاجة - مثل حليب كامل الدسم - كم في العالم اليوم من يعتقد أن العراق أو السودان أو أفغانستان كان يشكل خطرًا على أمريكا، فيعطيها الحق بالدفاع عن نفسها بأن تدفع جيشها للحرب في هذه البلاد؟

وكم في العالم من ساذج يعتقد أن لبنان أو الشعب الفلسطيني يشكل خطرًا على إسرائيل، فيسمح لها بغزو لبنان أو قطاع غزة؟

تساؤلات مشروعة.. فهل من مجيب؟